

لورنس

المكري والرجل والثورة العربية

Lawrence of Arabia (١)

كان غرضه من ساحة دخوله الميدان مزدوجاً — ان يبدد ما أحاط بمقام بلاده من القيوم في الشرق الأدنى بأشوا دولة عربية تتكلم عليها بريطانيا في خططها الحربية ، وان يحرر العرب من يدي الاراك فيفسح لهم المجال لتحقيق آمالهم . وقد تحقق هذا الغرض على يديه أبديع تحقيق . فأعمال العرب التي تمت بأشراف لورنس في خلال الحرب ، كان لها شأن كبير في شل قوى الاراك وتفتح روح الحياة في حركة البريطانيين . فكانوا بذلك عاملاً حيوياً في هزيمة الاراك وفصر الانكليز . ثم ان تبار الثورة العربية الذي امتد من مكة الى دمشق انتهى الى انشاء دولة عربية في سورية . أما بعد الحرب فقد تعارضت مصالح حليفة بريطانيا الكبرى مع مصالح حليفتها الصغرى فتغلبت عليها ، فهدم بناء الدولة السورية الجديدة . وما كان للورنس حيلة في دفع هذا الانحراف ، ولكنه خرج في سنة ١٩٢١ من عزلته في أكسفورد فوجه سياسة دولته توجيهاً كان من شأنه ان منح فبصل ملكاً جديداً بعد أن سلبه الفرنسيون ملك الشام . وأقيم أحد اشقائه أميراً على الدولة العربية الجديدة في شرق الأردن

كانت الحركة العربية التي غذّاها لورنس وارشدّها وهي في مهبها أم حركة ظهرت من بلاد العرب في خلال القرون العشرة الاخيرة . وليس ينقص من قيمة نتائجها ان بعض قبائل العرب فقط اشترك فيها اشتراراً قمعاً . اذ لا ريب في ان العرب اصبحوا بعد انقضاء قرون ، عاملاً قوياً في ميدان السياسة يجب ان يحسب حاسبة . فالصالح العرب بالشعوب الاوربية هذا الاتصال الجديد بتوسّع من الناحية التاريخية لتلقيب لورنس وقد كان العامل الفعال في هذه الصلة الجديدة — لورنس أوف ارايا ولكن هناك توسيع اعم شأناً وابعد آراً وهو التوسيع النفسي . فاللقاب الجغرافية : تنزل في مكانها الصحيح ، عند ما تعرب عن اندماج بين الشخصية الانسانية والحقيقة الجغرافية . فالصحراء كانت في دم لورنس ، وقد كان الاندماج بين روحه وروح الصحراء اندماجاً تاماً

كان لورنس بحب التجوّل من حداته ، ويميل الى العزلة بفطريته . فكان يقضي ساعات فراغه في حداته يتنقّب الجداول الى منابعها او الى مصابها ، او يجمع قطعاً من الحرف الروماني القديم او

(١) ملخص فصل الثامن ليدل هارت Liddel Hart اكبر النقاد العسكريين الانكليز في «كتاب المضاء المعاصر» الذي نشره في كاسل في المراتل هذه السنة . وولف انزل كتاب حديث في سيرة لورنس



الكلونل لورنس بتلابسه الرسمية
Colonel T. E. Lawrence

يرود وحده الكاتدرائيات والتصور القديمة معنياً بتفصيلات هندستها المهارية
وفي حياته كذلك نجول في فرنسا ، ثم قبل تخرجه من الجامعة جاس خلال سوريا مشياً على
الافدام ، في حرارة العطلة السينية ، باحثاً في قصور الصليبيين متقباً عن آثار الحثين . ثم عاد
اليها في السرات السابقة للحرب ، لمراسة اساليب البحث الأثري . فلما توقفت اعمال التقيب في فرقيش
جال في العراق وفلسطين ومصر واسيا الصغرى واليرقان . وكان يصحبه في بعض رحلاته احد أبناء
البلاد . وكان يرتقى في خلالها من القيام ببعض الاعمال كسوق الابل او جمع الحصاد بل انه اشغل
مرة مع زمرة العمال في بور سعيد في تعبئة احدى البواخر بالنخع . وقد اشار الى ذلك في بعض
كتاباتو فقال : « كنت دائماً وأمثاً وغادياً حيث كان الرواح او القدو رخيصاً » . وقال ايضاً : « حلني
فقري على الانتمال بالملهيير ، حيث السامح الغني يتفصل عنها بماله ومن يتول خدمته » . وكذلك افلح
لورنس ، بتخليته عن تقاليد الحياة المدنية ، في صيرورته مستعرباً بدلاً من ان يظل زائراً اوروبياً
لبلاذ العرب . فكانت لا تهتئ مظاهر الاحترام التي يطلبها ويتوقفها الزوار الاوروبيون وبوجه
خاص الزوار الانكليز . وقد مهد له هذا السبيل اعتناقه من قيود الشعوب بان الناس طبقات فاندماج
في العرب وساز احدثهم بالانتماء

ولكي يسهل الامر عليه ، مال الى لبس الثوب العربي في خلال تجواله . وحينئذ في ذلك « انه
اذا ذهب بعض العرب الى وخن (وهي بلدة صناعية في لانكشير) بملابسهم العربية فالغالب ان اولاد
وخن يرحبونهم بالحجارة »

الاختلاط بالاطفال يقتضي ان نجردهم من نوازعهم الخاصة التي تقصمهم عنك . ولعل هنالك من
يقول كيف استطاع لورنس ان يفعل ذلك ، بشعره الاسمر ، وذقنه الحثيق ، وبشرته التي تضر من وقع
الشمس بدلاً من ان تسمر ؟ بيد ان هناك ما يدل على ان العرب قبلوه واحداً منهم وان كانوا لم
يخطئوه . وهو يقول ان ذلك لم يكن صعباً في سوريا ، حيث افضى اختلاط الملاوات الى كون
بعض أبناء البلاد شحراً ، والى كون بعضهم لا يعرف العربية الا معرفة ناقصة . قال : « كان من
المستحيل علي ان احسب عربياً ، ولكه كان من السهل ان احسب احد أبناء البلاد الذين
يتكلمون العربية »

ولكن لورنس تخلف في كلامه هذا التفسير الصحيح لنجاحه وهو مقدرة على فهم العرب . فقد
كان هذا الفهم ميسوراً له لان روجه كانت مطبوعة بما طبع عليه العربي من حب للعربية المطلقة .
وكان مثله مجرداً من اية رغبة في حيازة الممتلكات المادية في سبيل الرفاهة ، بعد ان يدفع ثمنها غالياً
بمخضوعه للقيود التي تفرضها على الانسان . وكان العطف سرّاً فيه للعرب . فهذه الملكة استطاع
ان يتبين انه لا توجد بينهم غوارق طبيعية او تقليدية ، الا غارق القوة التي يتنازع بها شيخ من
الشيخ نتيجة لعمله . قال : « وقد علموني انه ليس ثمة رجل يستطيع ان يصبح زعيماً لهم الا اذا اكل

طعام السواد ولبس ملابسهم وطاش في مستواهم على أن يكون له من قوة نفسه ما يميزه عنهم .
هذه المعرفة عند التطبيق كانت سر نجاح لورنس في صلكه بالعرب

وله في هذا الصدد كلام واف افرغه في قالب تعليمات وزعت على الضباط البريطانيين الذين تبعوه الى المنطقة العربية في خلال الحرب الكبرى . ف هذه التعليمات كانت بمثابة وصفة للنجاح في اتصال البريطانيين بالعرب ، ولكنها كانت كذلك منطوية على تحذير من المصائب ويان لما تقتضيه من الجهد ومن اقواله فيها : « اذا لبست ملابس العرب امض في الطريق الى نهايتها . اترك اصدقاءك الانكليز وعادتهم على الشاطئ واتبع طادات العرب بمخاطرها على ان جهد الميثة في جو غريب ، والتفكير بلسان غريب لا تهمه الا نصف فهم ، وأكل الطعام البدوي ، ولبس الملابس الغريبة ، واتباع الاساليب الغريبة ، والتنازل عن كل انزال وسكون ، واستحالة تراخك في مراقبة نفسك وأنت تقلد غيرك شهراً متوالية ، كل ذلك مضافاً الى المصائب العادية في معاملة البدو والترك ، والتعرض لحالة الجو المرهق ، تفرض على الانسان عبثاً ثقيلاً ، فعليه ألا يختار هذه الطريق الا بعد تأمل وتفكير صيق

« ان الالف والياء في سر الاتصال بالعرب هما عدم الوقي عن دروسهم . فكن دائماً على حذر . لا تقل قولاً لا تقتضيه الضرورة . راقب نفسك ورفاقك دائماً . اسمع كل ما يقال وابحث عما يجري وراء الظواهر . اقرأ اخلاقهم . اكتشف ما يلذ لهم ، وتبين مواطن الضعف فيهم ، واحتفظ بكل ما تكتشفه لنفسك ، . . . ونجاحك يكون على قدر الجهد الذهني الذي تبذله في هذا السبيل »
في هذه العبارة الاخيرة ، مفتاح لفهم عمل لورنس بوجه عام ، بل مفتاح لفهم نجاحه في القيادة الحربية وفي قيادة العرب في الحرب . ولعل أهم فخر اوتي لم يكن استنفار العرب للحرب ، بل فرض مقدراته كزعيم عسكري ، على اخوانه الضباط الانكليز الذين اتصلوا به اتصالاً وثيقاً . وليس ثمة أبعد على الدهشة من استعداد هؤلاء الضباط الذين كانوا يفوقونه ، رتبة عسكرية ، لاتباع قيادته . كان هذا دليلاً على انهم كانوا رجالاً ممتازين ، يستطيعون ان يسوا فوق تقاليد الطبقة التي ينتمون اليها ، فهو يرهان كذلك على صفاته العسكرية الممتازة

ولعلنا نستطيع ان نفسر مقامه هذا بعض التفسير بإيراد العبارة التي قالها فولثير في القائد مولورو : كان ممتاز من سائر قواد عصره بشجاعة الحادثة في وقت الصخب ، وبطانة نية نفسه في زمن الخطر ... وهما أعظم ما نهب الطبيعة للقائد »

ولكن لورنس امتاز بشيء أكثر مما تقدم . فالبريق الذي اقترن باسم لورنس واللمعان الذي أضنى على شخصيته ، اخفيا عن بعض العيون ، القوة التي نبعت من معرفته العميقة بقنوى الحرب . وفي هذه المعرفة نجد الرسالة التي تستمد من حملته العسكري ، لان لورنس كان في الواقع ، أعمق معرفة بمواعيد الحرب من أي قائد في الحرب الكبرى

قد يكون قولنا الأخير باعثاً على الاستغراب عند النظرة الأولى . ولكنه في الواقع قول صحيح . فلا ريب في ان ملائمة كبيرة من قواد الحرب الكبرى كانت اعرف بالجيش من لورنس . ولكنه كان يتنازل عليهم في كل ناحية اخرى . وقد ساعده على ذلك شبابه . كان معظم هؤلاء القواد قد قصروا الشطر الأكبر من حياتهم في سبيل الارتقاء من الصفوف الى مناصب القيادة . كانوا في شبابه اما ضابطاً في «الدفعية» ، او في «المشاة» او غيرها ولكن خبرتهم في نوع السلاح الذي اختصوا به فقدت . كبر جانب من قيمتها بارتقاء وسائل الحرب . فالمدفع الرشاش الذي كان مسيطراً على ميادين القتال في الحرب الكبرى ، كان سلاحاً جديداً ، اتقن استعماله بعد ما فخطوا ثم دور الشباب . ولكن لورنس توفّر على جميع هذه الآلات الجديدة ، توفراً يستغرب حتى من شابة متحمس ذكرى ، ثم إنه لم يكتف بذلك بل اضاف الى استعمالها شيئاً من ابتداعه الخاص

ليست معرفة ادوات الحرب معرفة وثيقة بما لا يستغني عنه القائد ، ولكنها معرفة لها قيمة عظيمة . ونحن اذا نظرنا الآن الى سير الحرب الكبرى ، نرى انه لو كانت معارف القواد الكبار بادوات الحرب الجديدة اتم مما كانت ، لساعدتهم على اجتناب كثير من الاخطاء التي وقعوا فيها . كان لورنس في حداته قد وثق معرفته بالتاريخ ونظرية الحرب العليا . والواقع انني لا اعرف قائداً يضاهي لورنس في سعة مطالعته في هذا الموضوع . بدأ وهو في السادسة عشرة عطالة ما كتبه كرمسي ونابيير وماهان وهندرسن في هذا الصدد وهو لا كانوا في الغالب جهد ما يملغهُ القائد البريطاني في دراسته العسكرية . ثم ارتقى بعد ذلك الى مطالعة كلوز وثر وجوميني وجولتز وفوش . ولما لم يكتف بما تقدم عزم على تصفح رسائل نابليون التي تملأ اثنين وثلاثين مجلداً وهذا حمله على دراسة الكتب التي بنى عليها نابليون قواعد خطته العسكرية فالتكّب على دراسة جبير وبورسه وساكبي . وكذلك نرى هذا الطالب القتي يتتبع الخطط النابوليونية الى مصادرها في زمن كانت فيه هذه المصادر مجهولة من معظم العسكريين . ومع ذلك لم تكن مطالعته في التاريخ العسكري ، الا ناحية واحدة فقط من مطالعته الواسعة النطاق ، حتى لقد قيل انه قرأ كل كتاب في مكتبة اتحاد أكسفورد . ولكن الصحيح انه قرأ كل كتاب لذت له فراءته فكان يجلس في المكتبة ويبدأ في مطالعة رقعة من الكتب في موضوع يهمه ، فيتصفح بعضها ويأخذ معه الى داره ما يهيمه العام النظر فيه . فكان يطالع كذلك نحو ثلاثة كتب رزية في اليوم ورواية بعد الظهر اتجاعاً لراحة الذهن . وكان في جميع مطالعته يعتمد الى المراجع ولا يكتفي بالتف والملاحظات

ومما كان له أثر عظيم في تصيه مطالعته لمؤلفات مفكري القرن الثامن عشر الذين مهدوا للنشوء الفرنسية . فهذه الثروة العظيمة من المعرفة التاريخية مؤيدة بمعرفة عامة في جميع الموضوعات المتصلة بالحرب جعلته فذاً بين قواد عصره . فلما جمع الى معرفته النظرية خبرة وعناصر شخصيته القوية حول معرفته العسكرية النظرية الى عبقورية عسكرية عملية نادرة

مكنته عبرته هذه من التغلب على حوائل لم يتعرض لها كبار القواد في الحرب الكبرى . كان عليه ان يكون قائداً من دون قيادة . وزعيماً لا يسعه الا افراراً وأمره في قوالب النصيح والارشاد . وكان جيشه مؤلفاً من رجال عرفوا بنزعهم الفردية المستقلة وقد جمروا من قبائل مختلفة ومتناثرة أحياناً . أما وسائل الحروب الحديثة ، التي دوسها لورنس وعرف عزايها ، فكانت غير متوافرة لديه فخطر ان يعتمد على قوة ابتداعه ، لايشكار الخطأ التي تمكته ، رغم كل هذا من تحقيق الغرض الذي وضعه نصب عينيه . بل ان اكبر الموائق التي قامت في سبيله كانت اقناع رؤسائه بقيعة هذا الجيش في الصحراء ، مع شدة اعراض هؤلاء واحتقارهم لأية مساعدة عسكرية غير نظامية

ان تاريخ السنتين التاليتين ، مقياس للنجاح العظيم الذي أصابه في هذا المسلك الوعر . ان ماتم على يدي لورنس والعرب من أعجب ما يرويه التاريخ العسكري . فقد نظمت الثورة العربية ، وتحول احتلال الأتراك للجزيرة الى حامية محاصرة ، لم تلبث ان سقطت في أيدي أعدائها ، كما تسقط النفاحة الناضجة عند هبة الريح . وقد كان احتلال العقبة وحده من نواحي الظفر الحربي . فقد احتلها العرب بقيادة لورنس بعد خسارة رجلين من الفرقة المهاجم مقابل ١٢٠٠ قتيل وجريح وأسير من الأتراك . فكان هذا الظفر ملائياً للخذلان الذي أصيب به الجيش الانكليزي في غزة ، وتقويتاً لاضراره ، وأزال كل خطر يهدد مواصلات الجيش الانكليزي في فلسطين ، والمواصلات الامبراطورية البريطانية في قناة السويس . ولكن انتشار الثورة في بلاد العرب ، كان له الى جانب هذه النتائج السلبية ، نتائج ايجابية ، لان عدد الأتراك الذين عهد اليهم في حامية مكة حديد الحجاز ، والبلاد التي الى جنوبه ، كانوا اكثر من الأتراك الذين واجهوا الانكليز في فلسطين

وفي المرحلة الثانية من غزوة الانكليز لفلسطين ، أي بعد احتلال القدس ، كانت القوات العربية ، كالجن بحمي مؤخرة الجندال النبي ، ويستوقف نظر الأتراك فيضطر هؤلاء الى توزيع قواهم بين فلسطين والصحراء . وقد بدأت خدمة العرب هذه ، بعناية لورنس بتدمير قطارات مكة حديد الحجاز ، ذاهباً في عمله هذا الى الشمال ما استطاع ، حتى لقبه المعجبون به من العرب «بمدرس القاطرات» . ولما كانت ذخيرة الأتراك من القاطرات أقل من ذخيرتهم من الرجال ، كان تدمير القاطرات اقل في اضعافهم من قتل الرجال . ثم قطع العرب موارد الأتراك من منطقة القمح شرق البحر الميت بالسطو على القوافل المحملة قمحاً . وكذلك استطاع لورنس والعرب ان يستروا عناية الأتراك في النصف الاول من سنة ١٩١٨ لما كان جانب كبير من جيش النبي قد نقل الى فرنسا لتعمير خنادق الخنادق في مباديتها

ثم انه باعماله هذه حال دون تجميع الأتراك لقواتهم ، وتنظيم مقاومتهم للجيش البريطاني ، فهدد خير عميد ، لضربة النبي القاضية في خريف سنة ١٩١٨ . وقد اعترف الجنرال ليهان فون ساندورز انه تخلى عن فكرة مقولمة الانكليز لانه مجهز عن صد الثوار العرب في مؤخرة الجيش التركي

وفي سبتمبر كان النبي مستعداً للهجوم. وكان نصف الجيش التركي، المرابط إلى جنوب دمشق مضطراً أن ينصرف عن مقاومة النبي خوفاً من تهديد بضعة آلاف من العرب في الصحراء. وكذلك استطاع النبي أن يهاجم الأتراك بقوة تفرق قوتهم خسة اصعاف. وكان لورنس في أشهر السابق قد خدع الأتراك بسلسلة من المناورات، فعلمهم على الظن أن هجوم النبي سوف يجرى من الشرق من ناحية همال بدلاً من الشمال من ناحية الجليل. وفي الأيام الثلاثة الأخيرة من الاستعداد للمعركة الفاصلة، خرج العرب من مكائهم ونسوا خطوط السكة الحديد إلى الشمال من درعا وإلى جنوبها وغربها، وكانت هذه النقطة ملتقى مواصلات الأتراك. فضعفت هذه الضربة الأتراك إذ كان النبي مستعداً للانتفاض عليهم فصحهم في المعركة التي تلت سحقاً واجهزت الطائرات البريطانية وقصائل الفرسان البريطانيين على الذين لاذوا بالفرار. ولما يقى أمام البريطانيين الأ الجيش التركي الرابع، وهو أقوى وحدات الأتراك، فأقدم لورنس بنفسه من العرب على الزحف إلى مؤخرة الجيش فلم يلبث الجيش الرابع حتى تفرق بدءاً فانهكه التراجع، وعند أبواب دمشق التقى العرب بأكربر شزيمة منة فأجهزوا عليها، ودخلوا دمشق أمام الانكليز.

لم يكن احتلال العرب لدمشق، تزكية لشورتهم فقط، بل تزكية كذلك لفكرة قامت في ذهن لورنس، وتأييداً لنظرية عسكرية مضي عليه زمن وهو يطبقها. وإذا كانت زور هذه النظرية قد زومت في أيام المطالبة إذ كان لا يزال طالباً في أكسفر، فإن مبعاد القنطاط جاء في خلال سنة ١٩١٧ لما كان لورنس على فراش المرض في وادي قيس، وأمانه من الوقت متسع للتفكير والتأمل. فعلى فراش المرض تدبر لورنس كيف يستطيع أن يعالج القوة التركية في الحجاز، وكانت حينئذ مجتمعة في المدينة. فاحطط الحرية الشبهة كانت تقضي ببذل الجهد لإخراجهم من المدينة. ولكن هذا الحل لم يبد بسيطاً في نظره وخاصة في نظر من يعرف نفور العرب من قتل الحرب. وإذا هو ينكر ضبط الجواب عليه، كأنه شح من الإطعام. فقال: ولماذا نهم هذا الإطعام بالمدينة وحاصرها. أن افتتاحها الآن متعذر. ولكن ما الفائدة من افتتاحها على أية حال. بل ليس من الضرر أن نفتتحها؟ واليك ما كتبه في هذا الصدد «أن الأتراك فيها مدافعون لا يتحركون، يتغدون بلحم الحيوانات التي يجب أن تستعمل لتغلبهم إلى مكة. أنهم وهم يراهمون في المدينة لا يستطيعون أن يتناولوا بأذى. فإذا امرناهم كلفونا غذاء وحراسة في مصر. وإذا أخرجناهم من المدينة ودفعناهم أمنا إلى الشمال انضموا إلى الجيش التركي المرابط لنا في سيناء. فالأفضل أن يبقوا حيث هم. هم يهتمون البقاء في المدينة. فليبقوا فيها»

على أن لورنس لم يكتف بهذا. بل قال في نفسه، ولماذا لا نعمم هذه الخطة، فنطلقها على جميع الأماكن التي يمكن حصر الترك فيها. «فالأتراك يحتاجون عندئذ إلى ستائة ألف محارب لحماية المدن والمناطق المختلفة من غضب العرب. وليس عندهم إلا مائة ألف»

ثم هناك ناحية أخرى. كانت ذخيرة الحرب في الجيش التركي غير كثيرة التيسير وكان المحاربون

في الجيش التركي أكثر من الاضواء الحربية اللازمة للثزال . لذلك يجب ان يكون غرضنا تدمير ذخيرة الحرب لا قتل المحاربين . فتدمير جسر تركي ، او قاطرة تركية ، او مدفع تركي ، او مفرقة تركية ، أكبر فائدة من موت جندي تركي . ان حربنا يجب ان يكون حرب انفصال . اننا نستطيع ان نتفوق على العدو ، بالتهديد الذي ثمانه صحراء لما اول ما لها آخر . اننا نحن فلا نظهر في الميدان الا في ساعة الهجوم . وهذا الهجوم ليس من الهجوم المألوف في شيء ، لانه يجب ان يوجه الى مراد الحرب لا الى المحاربين . ولذلك يجب ألا نبحث عند الهجوم ، عن مواطن الضعف او القوة في جيش العدو ، بل يجب ان نبحث عن مادته الحربية التي تتكون اقرب ما يكون الى متناولنا . هذا الابتداء في الخطط الحربية ، اذ درس مقتراً بنتائج الحرب الكبرى ، اصبح لاعمال لورنس في بلاد العرب مغزى جديد . فالتاريخ العسكري لا يسمعه ان يقول ان لورنس كان قائد قوة غير نظامية ويكتفي بذلك . فهو ليس زعيماً من زعماء حروب العصابات ، بل انه ذو عبقرية فذة في تدمير الخطط العسكرية ، وقد استشف بناب بصيرته ، الميل في الحروب الحديثة والمثقلة الى هذا النوع من الخطط ، الناشئ عن زيادة اعتماد الامم على مراكزها الصناعية . رأى ذلك أولاً في صحراء بلاد العرب ، وما نحن بزمى الامم العسكرية اليوم تضع خططها الحربية ، واول اهدافها تدمير المراكز الصناعية قبل اقناع المحاربين . وقد اثبت ليل هارت بكتاب ورد له من لورنس ، ان لورنس نفسه كان يدرك كل الادراك مغزى خطته هذه في تطييعها على الحروب بوجه عام

قلنا نحبب الحقيقة المنطوية في القول المأثور « ان التاريخ يعلمنا اننا لا نقيم وزناً لعب التاريخ » من رجل كلورنس درس التاريخ ونفذ الى عبره . فكان ادراكه هذا بانكأه على الشعور بوجود الانشغال من الدنيا والتفرغ لمطالب الروح العليا ، فتتظم « نقرأ » في سلاح الطيران للجوي البريطاني ولم يقل الا ان يكون « نقرأ » فيه . واتفق ساعات فراغه في دراسة الآداب القديمة وقد اخراج الناس من سنتين ترجمة جديدة لآلياذة هوميروس

ان شهوة العظمة والسلطان منبع أعظم الشرور ، فاذا لم تضبطها الحكمة ضبطاً تاماً — وقلمنا تجتمع الحكمة وشهوة السلطان — افقت الى اخفاق الرجل او الى تعرضه لحرية غيره من الناس . ونتيجة اطلاق السنان لهذه الشهوة ، كان من شأنه في جميع ادوار التاريخ ، اذية أصحابها وخطفائهم والغنائم التي نهضوا لتأييدها . وقد حال بين لورنس والانتظام في سلك هؤلاء الرجال صفاء ذهني كاد ان يكون حكمة خالصة

كان في شبابه يطمح الى بلوغ مقام العظمة في ميداني العمل والتأمل . ولكن خبرته اثبتت له تناقضهما . فاطبق « فرامل » التأمل على « هجلات » العمل وقال لنفسه ان هنا وكفى كان في السادة والمشرين من صمره لما خاض ميدان الحرب وهدفه أن يصبح جنرالاً وان يحرز

تلب « مارس » قبل أن يبلغ الثلاثين ، ولكنه طرح هذه المطامح جانباً قبل بلوغ الثلاثين إذ كان تحقيق هذه الأغراض في متناول يده . ولكن المصطح الذي ظل قائماً في نفسه وهو في طريقه إلى دمشق ، كان العمل دون الآبهة التي تصحبه . فلما وصل دمشق قذف حتى بهذا المصطح إلى الرياح . أقام في دمشق ثلاثة أيام وهو يحاكم المطلق من وراء ستار . فلما كان اليوم الرابع ، أدرك خطر السلطان على حكمته وحرية خارجي العنان . ذلك أن رداء السلطان كان قد أتى على كنفه عند ما تضرعت في نفسه ثمرة الحكمة المتفتاة . فطرح الرداء ولاذ بالحكمة

كان المصوح آخر قيد يفلح حرية الروحانية ، فطرح القيد ليبلغ الانساق التام . وكأن الطبيعة قد أعدت خاصة لذلك فجردته من شهرات معظم الرجال . فليس لشهرة الطعام واشتراب الر في حياته . أنه يستطيع أن يأكل عشاكامل الألوان وأن يتمتع بلذائمه ، إلا أنه يفضل أكلة واحدة في اليوم ، وأفضل الطعام البسطة . ويظهر أنه كان كذلك مجرداً من الشهوة الجنسية . وما على المرء إلا أن يتقدم ما تشغله هاتان الشهوتان من حياة الإنسان ، وكيف تكبلانه بقيود منظورة وخفية ، حتى يعرف مدى الحرية التي أدركها لورنس بمجرد منها

ثم هناك قيد آخر تقيد به الروح الحرة ، ولكنه قيد خفي ، وهو النزوع إلى المنافسة . فهنا النزوع لازم لحث معظم الناس وحضهم على العمل . ولكنه يقوم حجر عثرة في سبيلهم كلما خطروا بضع خطوات . أما لورنس فقد تجرد منه فكان في حد ذاته يرفض عن الألعاب المدرسية القائمة على المنافسة ، وروى أنه من سنوات العمل المبكرة بتدقيق صغيرة عزيزة عليه ، في محطة الطيران ، لما أعلن ضابط القرقة أنه بمنح جائزة لمن تفوق حديثه على حدائق الخرائط

فقد كان في لورنس في خلال حياته ، أن يبلغ مستوى معين من الرجولة أقامه في ذهنه ، لا أن يتفوق على أحد . وكذلك أزال من حياته ، مصعراً من أهم مصادر النزاع بين الناس

ثم أن غريزة الامتلاك أبعد أنراً في تكبيل النفس من نزعة المنافسة . وقد حاول لورنس جهده أن يقطع جميع حبالها . ولكن كيف يستطيع ذلك وهو إنسان . ها هي تظهر في كتابه ملكة أو في قطعة موسيقى يحوزها . حاول لورنس أن ينقص مطالبته إلى المادية إلى أقل قدر مستطاع ، ومحاولاته في التخلّص من بعض قيودها وصحت بعض أفعاله بسعة الشذوذ . قال : « لو كان في وسعي لو هبت كل شيء ولتنازلت عن كل شيء » . ولكنه لم يستطيع ذلك ، من دون أن يتعرض لاختار رغبته الروحية ، أو رغبته الجنسية المتصلة بالروح . فالجمال لا يتفصل عن الحق . والحكمة نفسها تتحول دون بلوغ الحرية المطلقة

لقد فاق لورنس كل رجل آخر اعرفه في اقترابه من الحرية المطلقة . ولكنه لم يستطيع بلوغها . كان روح الحرية محبها في عالم مكبل بالافلال ، ولكن تجسيم هذه الروح ، في قالب انساني ، يقضي بالخضوع لبعض القيود ، ولو كان خفية عن عين الإنسان العادي